المواجهة الحضارية في رواية "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس

محمد سليم

(الباحث في الدكتوراه، بجامعة جواهر لال نهرو بنيو دهلي)

ملخص البحث: *[قدّمت الرواية العربية صورا ونماذج واضحة لاحتكاكات العرب مع الغرب على أصعدة مختلفة في إطار التفاعل الثقافي والتعامل السياسي والصراع الأيدولوجي مما يكشف عن مدى وأثر وفعالية الرواية العربية في تقديم الطرحات الفكرية المختلفة وإظهار التباينات الأيدولوجية وتبيين الصدمات الحضارية في الماضي البعيد والقريب واستشراف مسارات التفاعلات والاحتكاكات المستقبلية بين العالمين - العربي والغربي- في ضوء ما درسته من قضايا ثقافية وسياسية عالمية راهنة. ومن الروايات العربية الأولى التي تحدثت وتناولت وناقشت عن المواجهة الحضارية فيما بين العالمين هي رواية "الحي اللاتيني" التى عالجت قضايا الاستشراق والحوار الحضاري والصراع السياسي والاجتماعي معالجة دقيقة أظهرت فيما بين العالمين من خطوط الصدع الثقافية التي أزكت جذوتها وأججت نيرانها وأوقدت لهيبها كتابات المستشرقين القديمة والجديدة وسياسات المستعمرين القمعية والعدوانية.]*

كتب هذه الرواية الأديب اللبناني الشهير والكاتب البارع الكبير سهيل إدريس عام1954م، وهي تسلك نفس الدرب الذي سلكته الروايات العربية الأخرى أمثال رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، ورواية "قنديل أم هاشم" ليحيي حقي و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح وغيرها من الروايات، إلا أن طريقة معالجتها للموضوع والقضية مختلفة إلى حد كبير. وهذا التفاوت في معالجة الموضوع والاختلاف في تناول القضية إنما تفرضهما ضرورة التفاوت في طبيعة فهم ووعي كاتبين مختلفين.

ولعل الرواية العربية هي من أنسب الفنون الأدبية العربية الحديثة للأدباء والمفكرين العرب الذين مارسوا بواسطتها حريتهم وفنهم وقدموا آرائهم وأفكارهم في القضايا التي تهمهم وتهم الأمة التي ينتمون إليها وخاصة إذا كانت هذه القضايا

تتعلق بقصة كفاح الأمة ونضالها ضد الاستعمار الجديد والقديم وبذل الجهود من أجل بناء أمة تفتخر بمجدها وهويتها وثقافتها وتدافع عن نفسها بكل ثقة وقوة وتذود عن حياضها أمام تيارات الأفكار الغربية المدمرة الجارفة التى تحاول النيل من ثقافتها وتسعى دوما لأن تقيم إسفينا بين دولة عربية وأخرى. وكل هذا الكفاح والنضال ضد الاستعمار الغربي وقصة هذا الصراع من أجل الاستقلال والاستقرار والحرية والمجد لها حضور ملموس في وجدان المفكرين والأدباء العرب خاصة وفي وعي الشعب العربي والشرقي عامة. ولأجل ذلك نرى كثيرا من الروائيين العرب يسردون قضية تصوير آلام الشعب العربي وضيقه من خناق الاستعمار ومحاولاته الفكاك منه منذ أول يوم نشأة الفن الروائي. واستطاعوا بهذا الفن رصد المستجدات في سياسات العالمين العربي والغربي على الصعيد السياسي كما وفقوا توفيقا كبيرا في طرح القضايا الفكرية والاجتماعية والثقافية والتجددات التي طرأت على الصعيد الثقافي والاجتماعي.

تناول سهيل إدريس في هذه الرواية قضية المواجهة الحضارية فجسّد بها صورا للصراع الثقافي وأشكالا للصراع الحضاري. وهذا الصراع يظهر جليا حينما نرى الفروق الهائلة بين العالمين في القيم والأخلاق والدين والموروثات الثقافية. وقد أشار إلى هذا الجانب الدكتور جمال مباركي: "وتعد رواية "الحي اللاتيني" من أشهر رواياته التي تناولت موضوع الغرب، وقد صوّرت الفرق الحضاري بين الشرق والغرب والعلاقة بينهما، وتبدي هذا الصراع من خلال صراع الأم و العشيقة الغربية، وهو صراع بين الخضوع للتقاليد المتوارثة، وحرية الانفتاح على كل ماهو جديد وحضاري حتى وإن كان آتيا من الغرب. فقد أبرزت هذه الرواية وجوها مختلفة للغرب المتصارع معه من خلال صراعه مع نسائه." [1] فالرواية تصور الصراع بين الشرق والغرب ويتم تصوير هذه العلاقة بين البطل الشرقي والمرأة الغربية. فبطل الرواية هو الأنا أو الشرق والمرأة الغربية هي بمثابة رمز للآخر، وسنرى كيف ستكون طبيعة العلاقة بين الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية؟ هل ستكون العلاقة إيجابية أم سلبية؟ وما أساس هذه العلاقة ومنظورها الفلسفي؟ هل ستكون

[1] .الغرب في الرواية العربية- جمال مباركي- سنة الطباعة غير مذكورة، ص، 131

النهاية بصراع أم ينتهي الأمر إلى تفاهم وتصالح؟ وما هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله أحداث الرواية؟ كل هذا سنراه من خلال دراستنا للرواية.

تبدأ الرواية بوصول البطل وصديقيه عدنان وصبحي إلى فرنسا من أجل استكمال دراساتهم العليا وهؤلاء هم الذين يلعبون أدوار الشخصيات المحورية في الرواية، بيد أن الشخصية الدينامية التي تدور حولها الأحداث وتتمركز عندها قضية الهوية والوطن والصراع هي شخصية البطل التي استقر بها المقام بعد وصولها إلى باريس في الحي اللاتيني لتكون قريبة من جامعة السوربون. وبعد الاستقرار في الفندق، انطلق أصدقاء البطل للارتماء في أحضان الحرية والخمرة والرقص والمجون والاستهتار والجنس بعد أن هربوا من قيود أعراف مجتمعهم وتقاليده التي جعلتهم يعانون من الحرمان والكبت. وأصبحت الأنثى لعدنان وصبحي ملاذا وجوديا ومصيرا إنسانيا ضروريا. لكن بطلنا انطوى على نفسه وانزوى في غرفته يستعيد ذكرى الماضي وأصدقاءه في بيروت وعشيقته ناهدة. وعاش البطل فترة من التردد والشعور بالغربة والانجذاب بين بيروت وباريس، بيروت الماضي وذكرياته وبيروت التقاليد الصارمة وباريس الحاضر وحرية الانعتاق والانفتاح. وأحس بالإخفاق والفشل في الحصول على ماكان يتمناه ألا وهو الوصول إلى أنثى شقراء للتواصل معها وجدانيا وعاطفيا على غرار أصدقائه العرب"تبحث عنها...عن المرأة...تلك هي الحقيقة التي تتساها... بل تتجاهلها، لقد أتيت إلى باريس من أجلها والآن أرأيت أنك كنت مخدوعا عن نفسك، ساعة كنت تتصور أنهن كثيرات هنا، وأنه يكفيك أن تسير في الطريق، ليتهافتن عليك، ويحدثنك حديث الهوى."[1]

وقرر البطل أن ينطلق مستبيحا ما هو محرم في بلده، وبدأ يقتنص لذات الحب والجنس، ويسأل هذه ويطارد الأخرى. لكن علاقاته في البداية كانت فاشلة أساسها الخيبة والانتظار والملل والإخفاق والإحباط. والبطل يتذمر ويغضب على نفسه "أسبوع طويل ينقضى وفي جسدك نار تلتهب وفي مخيلتك ألف صورة وصورة لنساء عاريات متمددات على السرر يلسعن فكرك و جسمك بألف لسان من نار، لا، لا تحاول أن تحتج أو تتكر. أجل شرقك ذلك لم يغرك بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربية، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك... هكذا عرفت المرأة في

[1] الحي اللاتيني –سهيل إدريس- دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م. ص، 23

شرقك، فعرفت الخوف والحرمان والكبت والشذوذ والانطواء والخيال المريض، عرفت الخيال على أي حال، فكان فيه منجى من نفسك وجوك ومحيطك ومجتمعك، وقد أمسك هذا الخيال بذهنك، فقاده إلى البعيد البعيد الذي خلقت إطاره في وجدانك فصول من الكتب، أو مغامرات من صديق." [1]

وبعد أيام من العبث واللهو والمجون، تعرف البطل فتاة أحبها و أحبته. وهي جانين مونترو تسكن معه في نفس الفندق. وبعد مرور الأيام توطدت العلاقة بينهما وصارت علاقة وفاء وصدق والتزام. وإذا كانت المرأة للبطل هدفا أساسيا فإنها بالنسبة لفؤاد وسيلة للنضال الوطني والقومي، قضية أكبر من قضية المرأة، فأمته في حاجة إليه لتحريرها من براثن الاستعمار وقيود التخلف والاستبداد، لذلك سيتصادم مع فرانسواز التي كانت تدافع عن الاستعمار الأوروبي، بينما فؤاد يرفض موقفها العنصري وغادرها عائدا إلى وطنه لتشييع والده وبقي هناك من أجل النضال القومي.

أما البطل فهو يعيش حياة حب وغرام مع جانين مونترو وبينما هو كذلك إذ يصل إليه نبأ مرض أمه التي تدعوه إلى زيارة أهله فيضطر إلى أن يسافر وكان هذا السفر بالنسبة لجانين مونترو مأساة مؤلمة موجعة أثار فيها فكرة التفاوت الحضاري بين الشرق والغرب على الرغم من انبهارها وإعجابها بروحانية الشرق وسحره الطبيعي الرائع وصحرائه الفيحاء وتعاطفها مع العرب وثورتها على بلدها المستعمر.

وبعد وصوله إلى بيروت، أحس البطل بالغربة والملل والضيق بسبب ابتعاده عن باريس و حبيبته جانين التي تخبره في إحدى رسائلها بأنها تحمل جنينا في بطنها وتسأله عن رأيه فيه. لكن البطل يكتب إليها تحت ضغوطات أمه وأخته بأنه لا رأي له في ذلك و يقول: "ليس لي أن أقدم لك أية نصيحة أو إشارة تحياتي الصادقة لك." [2] وقامت جانين بإجراء عملية جراحية لإسقاط الجنين وعانت ما عانت من مرارة الألم والمرض، وصارت فقيرة معدمة ليس لها من يعيلها و يشاركها أحزانها و يقاسمها أشجانها ويساعدها على مواجهة أعباء الحياة.

---

[1] نفس المصدر- ص 25- 26

[2] نفس المصدر- ص 217

وعندما عاد البطل إلى باريس وبخه فؤاد لأنه لم يلتزم بالحرية ولم يتحمل مسؤليته، كما عاتبت ضميره رسائل جانين ومذكراتها فبدأ يندم حين لا ينفع الندم. وبدأ يبحث عنها ولم يجدها إلا بعد مرور أشهر وقرر البطل أن يتزوج منها لكنها رفضت ذلك وقالت له... لا لن أذهب معك، إن بوسعي الآن أن أتمثل نفسي إذا رافقتك ستجرجرني خلفك، سأعيق طموحك، سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة فامض قدما يا حبيبي..ولا تلتفت إلى وراءك...وعد أنت يا حبيبي إلى شرقك البعيد الذي ينتظرك، ويحتاج إلى شبابك و نضالك."[1] وحقا عاد البطل الشرقي إلى بلده، ليبدأ نضاله الوطني والقومي، ولتحقيق طموحاته و تطلعاته بين أحضان أسرته وشعبه وأمته. هذه هي قصة الرواية وهي قصة تحمل بين ثناياها أفكارا وآراء عن القضية التي تحاول الرواية معالجتها.....فهي تظهر التفاوت الحضاري بين الشرق والغرب، كما أنها تنبئنا عن الاختلاف الجذري القائم بين القيم الروحية الشرقية والقيم المادية الغربية، وتقدم نموذجا صارخا لما أصاب أبناء الشرق المنفتحين على ثقافة الغرب من اندهاش وانبهار ومن ثم نكران اللذات وفقدان الهوية الثقافية والتمزق الذاتي.

التمزق الذاتي والبحث عن الهوية الشرقية الثقافية

كثيرا ما نجد في الروايات العربية التي ترسم صور الصراع الحضاري بأنها تصور ما يصيب الأبطال الشرقيون أو الشخصيات الشرقية من اندهاش بالحضارة الغربية والصدمة الناتجة عن ذلك، مما يؤدي إلى تمزق ذاتي ومن ثم سعي حثيث دائم من جانب الشخصيات الشرقية لإثبات الذات وإظهار الفوقية أو على الأقل فكرة التساوي ونبذ الشعور بالدونية والتخاذل أمام الغرب.كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى عبد الغني في كتابه "الإتجاه القومي في الرواية": "وحين عرف بعد أن عاد إلى وطنه، أنها تعالج آلام الحمل، وضرورة العودة إليها، وهو يحمل على مستوى الرمز، ضرورة الانحياز إلى الغرب والارتباط به، فإنه وهو العربي، آثر ألا يعود إلى الغرب ثانية، وآثر البقاء في الشرق العربي ليبدأ النضال من أجل الوحدة العربية، وكانت علاقته بالغرب،كان يجب أن تكون عابرة، لا تحمل كثيرا من الارتباط، أن تكون بمثابة "علاقة تماس لا تهدف إلا إلى تأكيد الذات" ومع ذلك

[1] نفس المصدر- ص 262

فإن الأحداث تشير إلى أنه عاش فترة ليست بالقليلة يحمل هما ذاتيا ثقيلا، مترددا بين البقاء في الوطن أو العودة إلى الغرب، بين السعي لتأكيد الهوية العربية في معزل من المؤثرات الغربية، وبين العودة إلى الغرب منصاعا لقدره، من ضرورة تأكيد الذات في ظل الوجود الغربي وتحت حضارته." [1]

فعودة البطل إلى وطنه وخوضه في ساحة النضال والصراع تعني إثبات لهويته وإنتماءه إلى الذات العربية... وفي ذلك يقول الدكتورمحمد نجيب التلاوي: "وهذا العود إلى الوطن يدل على أن رغبة الانتماء أكبر من مغريات الآخر ويعني عدم الرغبة الضمنية في الذوبان في الآخر... ويعني وجود ثقة في قدراتنا يمكن أن تحيا وتؤثر وتفيد... ومع هذا فالعودة تعني وجود هوية لوطن يختلف عن الآخر اختلافا نوعيا وحضاريا." [2]

ومن الجدير بالذكر أن إثبات الهوية والشعور بالانتماء إلى الذات الشرقية أو العربية والاعتزاز بالثقافة الشرقية لا تظهر بقوة وشدة إلا بعد أن يصطدم أبطالنا الشرقيون بالحضارة الغربية ومن ثم يعرفون قدر هويتهم الشرقية فيعززون إنتماءهم إليها ويفتخرون بها ويمجدونها. وهذا ما يؤيده أقوال المفكرين الذين أخلدوا إلى الرأي بأن معرفة الآخر (الغرب) يساعد على معرفة الأنا (الذات). كما أشار إلى هذا الجانب الدكتور محمد نجيب التلاوي: "والمستوى الثاني كانت الهوية غائمة عند البطل لكن المواجهة مع الآخر قد أوقفته على الحقيقة ليحدد الهوية ويعلن عنها بشكل فني غير مباشر وهذا ما سنجده عند أبطال روايات مثل عودة الذئب إلى العرتوق... فيينا60... الحي اللاتيني..." [3] ويؤكد ذلك ما قاله الدكتور جورج طرابيشي في كتابه"شرق وغرب" : "لقد رأينا أن بطلنا كشرقي لم يهرب من شرقه إلى باريس إلا لاشتهار هذه الأخيرة بأنها عاصمة المرأة أو "عاصمة حمراء" على حد تعبير بطلنا بالذات، لكن بطلنا كفرد قدم إلى باريس بحثا عن هوية، إذا جاز التعبير، وهويقول لنا ذلك بصراحة حين أفلت من بين أصابعه المنديل، "للمرة الأولى

---

[1] الإتجاه القومي في الرواية - د.مصطفي عبدالغني- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، ص،9

[2] الذات والمهماز- د.التلاوي- محمد نجيب الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م، ص، 50

[3] نفس المصدر- ص ،45

منذ بدأ يعي، شعر بقوة هذه الإرادة التي تعصف بوجوده في أن يولد من جديد، إنه يريد أن ينسى حداثته وأصحابه وبضع فتيات عبرن حياته بغموض، ليبدأ من أول الطريق، إنسانا جديدا يستلهم الحياة شخصية جديدة." [1]

ولذا نرى أن البطل إذا تمت له مثاقفته وتحديده لهويته، عاد إلى وطنه يعزز انتماءه إليه ويوثق ولاءه لأمته، يناضل ويكافح في سبيل تحرير بلاده من التخلف والجهل وبراثن الاستعمار.

القضايا السياسية: (الاستعمار والصراع السياسي بين الشرق والغرب)

رواية الحي اللاتيني تقدم نماذج واضحة للصراع السياسي بين الشرق والغرب، وهذا الصراع ليس لأجل أتفه الأسباب أو بدون أي مقدمات أو إرهاصات، بل إنه نتج عن الاستعمار كما نتج عن الممارسات القمعية والإجبارية و العدوانية التي قام بها المستعمرون في البلاد الشرقية. وهذا الاستعمار هو الذي دائما ما يشكل موضوعا للنقاش والحوار بين الطرفين - الطرف الشرقي والطرف الغربي- في هذه الرواية. ولعل ما نقرأ في صفحات الرواية المتناثرة من ذكر للكفاح والنضال والصراع من أجل تحرير الوطن من التخلف وبراثن الاستعمار هو يدخل في هذا الباب أي باب سياسة الاستعمار الغربي وأثرها في إزكاء نار الصراع بين العالمين. فذكر الاستعمار والصراع موجودان في الرواية في أتم شكلهما وأظهر صورتهما. وقد أشار إلى هذا الجانب جورج طرابيشي: "إن ما يميز رواية سهيل إدريس وما يقدمها على رواية توفيق الحكيم هو أن الاستعمار ووعيه غير غائبين عنها. ولا غائب عنها كذلك طريق خلاص "الشرق": النضال القومي، صحيح أن هذا النضال تكتنفه ضبابية وغنائية مثالية، وصحيح أن له - في ما له- وظيفة تبريرية وتعويضية، ولكن كذلك كان بالفعل في أوائل الخمسينات واقع النضال القومي العربي. وليس لنا أن نطالب من هذا المنظور، بطل "الحي اللاتيني" بأكثر مما كان يستطيع أبطال زمانه تقديمه، ومن هذا المنطلق فإن بطل "الحي اللاتيني" هو فعلا ممثل للشرق الذي يستيقظ." [2]

---

[1] شرق وغرب: رجولة وأنوثة- جورج طرابيشي- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1997، ص، 86- 87

[2] نفس المصدر- ص 110- 111

كما أننا نجد ذكر هذا الاستعمار في الحوار الذي يقوم غالبا ما بين الطرف الشرقي الممثل في فؤاد صديق البطل والطرف الغربي الممثل في صديقة فؤاد فرانسواز، وهي دائما تدافع عن فرنسا الاستعمارية، وبعض النماذج من الرواية توضح ذلك. نذكر هنا على سبيل المثال الحوار الذي جرى بين فؤاد والفتاة الفرنسية فرانسواز. تقول فرانسواز: "لقد علموا الفتاة الفرنسية، في بعض مجتمعاتهم، أن تخشى هذا الشرقي الساكن في الصحراء، القائم في مجتمع متأخر، لابد أنه متوحش وأعتقد أنكم مقصرون جدا في الدعاوة لأنفسكم... فقال فؤاد وكأنه يقاطعها: هذا صحيح ولكننا سنظل مقصرين في هذا السبيل ولو بذلنا ملايين الفرنكات، مادام اليهود هم الذين يستولون برؤوس أموالهم على أهم المرافق الفرنسية! فقالت فرانسواز: إنني أقرك يا عزيزي على رأيك ولكن إلى حد. فليس مال اليهود هو كل شئ في القضية وأنا أوكد لك أن أعداء اليهودية والصهيونية في فرنسا أكثر مما يتصوره البعض، ولكن هناك أمر آخر تعذرونني إذا صارحتكم به، إن بعض العناصر الشرقية والعربية بصورة خاصة تعطي في كثير من الأحيان فكرة سيئة عنكم، بما يرافق مسالكها من شذوذ وخرق للمواضعات الاجتماعية ولو ذلك... أوكد لك أيتها الآنسة أن هؤلاء الأفريقيين من تونسيين وجزائريين ومراكشيين الذين يسكنون هنا في أحياء خاصة لهم، هم أبعد من أن يمثلوا حقيقة السكان في تلك الأقطار... وقد بات معلوما اليوم أن السلطة تشجع قيام هذه الأحياء الخاصة في باريس... إن السلطات تشجع هذه الأحياء، وتدعو لها طابع الحياة المستقلة، لتقيم الدليل على أن هؤلاء المقيمين في باريس لا يستحق مواطنوهم أن ينعموا بالحرية والاستقلال، إنه الاستعمار، أيتها الآنسة فرانسواز، يتوسل بكل وسيلة ليظل ثابت الأقدام في بلادنا." [1]

ولم نأت بهذا الاقتباس الطويل إلا لنثبت به ما كان للاستعمار من حضور ملموس في أذهان الشخصيات الروائية، وذكر خوف الفرنسيات من الشرقيين يذهب بنا إلى التفكير فيما كان قد ترسب في أذهان الأوروبيين أو الغرب من نفور وحقد علي الشرق وأهله.

[1] الحي اللاتيني –سهيل إدريس- دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م. ص، 167- 168

هذا، ونجد في أعمال وتحركات الأبطال الشرقيين في فرنسا من إقامة للجمعيات ونشر أفكارهم بواسطتها وتكثيف مجهوداتهم من أجل تحرير الوطن ما يرمز إلى كفاحهم ونضالهم. وحتى أن هذا الأمر كثيرا ما يكون موضوعا للحوار والنقاش. فها هو صبحي يقول لهم: "إن عندي لكم نبأ لا مجال فيه للمزاح على ما أعتقد وبسط لهم الطبعة الليلية الأخيرة من جريدة "فرانسوار" فقرأو بعنوان ضخم: انقلاب عسكري جديد في سوريا" ثم أخذ يقرأ لهم تفاصيل النبأ... لقد كنا نتوقع ذلك منذ حدث الانقلاب الأول، لقد انتهى الأمر وسارت بلادنا في طريق الديكتاتورية العسكرية. ولكننا لم نفقد الأمل، ولن نفقده أبدا وإلا لن يكون لوجودنا أي معني، قال أحمد- صحيح أن الديكتاتورية العسكرية أمر لا يستحق إلا الشجب. ولكنه يظل خيرا من الاستعمار الأجنبي الذي يلعب من وراء ستار في بلاد مستقلة اسميا." [1] يظهر من هذا ماكان الأبطال الشرقيون يشعرون به من بغض وحقد على الاستعمار حتى أنهم اعتبروا الانقلاب العسكري خيرا من الاستعمار، وهذا أمر بديهي مادام قد وجدنا الاستعمار يمارس ظلما وعدوانا وفسادا في الأراضي الشرقية والمستعمرة. ونجد في رسالة جانين مونترو إلى البطل ما يدل على أن سياسة الاستعمار الغربية وما خلفته من إرهاق نفسي وظلم اجتماعي وفساد اقتصادي على الشعوب المستعمرة موجودة في ذاكرة الأبطال وجودا ملموسا. كتبت جانين مونترو في رسالتها إلى البطل الشرقي فيما كتبت: "إنني جادة في دروس الصحافة، وأنا أطالع كثيرا من الصحف اليومية وجميع الصحف مهتمة الآن بأنباء الاضطرابات في أفريقيا الشمالية، وأصارحك القول بهذه المناسبة، إني لا أستطيع أن أفهم سياسة القمع والإرهاب التي تسلكها حكومتنا هناك." [2]

ملامح الاستشراق في الرواية

بالإضافة إلى تصوير معاناة الشعوب الشرقية في ظل الاستعمار الأوروبي البغيض، تقدّم الرواية نماذج واضحة للرؤية الاستشراقية التى تبناها المستشرقون ووظّفها المستعمرون لإخضاع الشعوب المستعمَرة وخلق التخاذل الروحي والمعنوي في الشرقيين، حتى أن الاستشراق على حد قول الدكتور إدوارد سعيد أصبح عملية

[1] نفس المصدر- ص، 170

[2] نفس المصدر- ص، 204

مؤسساتية تساعد المستعمرين في ممارساتهم الاستعمارية. ونرى مثل هذه النماذج للاستشراق في أمكنة عديدة في الرواية، ولنتوقف هنا عند نموذج من الرواية و نتأمل فيه، فالبطل حينما يبدأ مغامراته الغرامية مع حبيبته الفرنسية جانين وهما في أول عهد لقائهما، هو يفكر في أمره وفي أمر شرقه ويناجي نفسه: "أم تراك قد زللت إذ أنبأتها بأنك من الشرق العربي، ما يمنعها من أن تجول في خاطرها كل ما سمعت أو قرأت عن مساوئ العربي فتحسبها ممثلة فيك. ألا ترى الغربي يخاف دائما هذا الشرقي، هذا العربي، النابع من رمال الصحراء، العائش في حضارات القرون الوسطى؟ وفلوبير نفسه، هذا الذي حنت، هي جانين، إلى الشرق بتأثير ما كتبه، ألم يكن حريصا على تصوير نواحي التأخر والحيوانية في حياة أهل الشرق." [1]

فهذا هو بيت القصيد، البطل يناجي نفسه ويخاف من ألا يؤثر كونه شرقيا على طبيعة علاقته الغرامية مع حبيبته جانين. وخوفه هذا إنما نابع من طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، كما يذكر ما كان قد لعب الاستشراق من دور سلبي في ترويج الأكاذيب والأوهام عن الشرق وأهله. فالصراع بين الشرق والغرب قديم وجديد. الاستشراق والاستعمار صنوان في ذلك. وهذا ما أشار إليه الدكتور محمود حمدي زقزوق: "وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين. وهكذا نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين." [2]

القضايا الاجتماعية: الصراع بين القيم الشرقية والقيم الغربية

إن الروائي سهيل إدريس لم يترك الجانب الاجتماعي للصراع الحضاري يذهب سدى، من غير أن يقدم صورا للصراع من الناحية الاجتماعية. فعنده الصراع بين الشرق والغرب لا يتمثل فقط في القضايا السياسية من الاستعمار والإمبرالية بل يتجاوز الأمر ذلك إلى القضايا الاجتماعية. وإذا درسنا رواية "الحي اللاتيني" بحثا

[1] نفس المصدر- ص، 96

[2] الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري- د.محمود حمدي زقزوق- دار المعارف، القاهرة، سنة الطباعة غير مذكورة، ص، 47

عن الفوارق بين قيم الشرق والغرب ومن ثم نماذج للصراع نجد أن القيم الخلقية و تقاليد الناس وأحوال المرأة في الشرق والغرب قد وجدت حيزا وافرا في الرواية. كما أشار إلى ذلك الدكتور حسن عليان: "إن وعي بطل رواية "الحي اللاتيني" "المرأة الشرقية" نسيج قيمها وعاداتها وتقاليدها ومعطيات واقعها الاجتماعي ولد فيه التردد بين وجهين حضاريين تمثلهما المرأة، وهو يرى العلاقة الجدلية بين قيم الشرق والغرب ومعطياتهما، فقد أخبر صبحي بطل الرواية إعجابه بليليان أولا، وكرهه لها ثانيا لوجهيها المتناقضين. أما الوجه الأول فقد تمثل في إعجابه بها وحبه لها، إذ دغدغت نزعة شاعريته، وأثارت فيه مكامن الحس الشعري، وهي تقرأ شعر جاك بريفير الذي انتحلته لنفسها، يقول له صبحي: "أنت لا تستطيع أن تنسى أنك شاعر، فإنك تريد أن تخضع كل شئ لهذه النزعة. لقد كانت أمامك امرأة فطلبت فيها شاعرة فحسب، أما الوجه الآخر الذي يرفضه فهو الكذب وادعاء ملكية أشياء لا تمت لها بصلة وخارج رؤيتها وقدراتها، وكذلك السرقة فقد اقتنع بأن يسرق شعر غيره وينسبه إلى نفسه لن يتورع عن سرقة أموال الآخرين. "[1]

بالرغم من أن الكاتب قد صور مرارا المرأة الشرقية بأنها متخلفة وتعاني حرمانا وكبتا وصور المرأة الغربية بأنها مثقفة ومتحررة ومنفتحة إلا أنه لم يترك مجالا للشك في أنه إنما يكتب ذلك عن يقين وإيمان بأن العالمين الشرقي والغربي مختلفان تماما، فهذه الثقافة والتحرر والانفتاح للمرأة الغربية لاتساوي شيئا أمام شرف وعزة وكرامة المرأة الشرقية حتى أننا نرى جانين مونترو تقول: "سأصارح حبيبي العربي بأني سأحبه كما تحب المرأة الرجل في الشرق. لاتطلب مقابلا، ولا تنتظر عوضا. لاأدري أين قرأت ذلك. ولكنني أعتقد أنه الحب الصحيح، لأنه التفاني كله والإخلاص...[2]

بطل الرواية دائما يذكر بأن المرأة الشرقية تخاف الرجل وتخاف من أن تقترب منه وتخاف من جسده، وهي ليست بذات ثقافة عالية إلا أن لها من الميزات ما تميزها عن المرأة الغربية، وذلك يظهر من خلال الشعور اللاوعي للبطل. كما أشار

---

[1] العرب والغرب في الرواية العربية- د.حسن عليان- دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان 2004م، ص، 118- 119

[2] الحي اللاتيني –سهيل إدريس- دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م، ص، 164

إلى ذلك الجانب جورج طرابيشي: "إن المرأة الشرقية الخانقة من جسدها وعلى جسدها لاتصمد للمقارنة، في محاكمات بطلنا العقلية الواعية، مع المرأة الغربية المالكة لزمام نفسها وجسدها وحريتها، التي تفتح بحضورها الآفاق ولاتكبت إمكانياتها أو إمكانيات الرجل، ولكن عندما يفلت من بطلنا زمام نفسه وتتحكم في أحاسيسه وأفكاره وتصرفاته ردود الفعل- وردود الفعل تصدر عن اللاشعور وتكشف عنه- تنقلب الآية وتتبوأ المرأة الشرقية باسم الشرف الجنسي- وهو قيمة شرقية عظيمة- مكانة لا ترقي إلى مثلها بتاتا المرأة الغربية." [1]

ونموذج آخر للصراع في الرواية نجدها في موقف أم البطل من الغرب ونسائه فهي دائما تحذر ابنها من المرأة الغربية في رسائلها إليه وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن أم البطل تتوجس خيفة من العالم الغربي ونسائه "أعود فأحذرك يا بني من نساء باريس... وقاك الله شر بنات الحرام". [2] "وأخشى يا بني أن يصرفك الغرب عنا، وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها وتخيب أمل أمك الصغيرة بك" [3]

وقد وقع المحظور والحذر لايمنع القدر، فقد أحب البطل الشرقي جانين وعاد إلى بيته فأرسلت إليه رسائلها وذكرت في إحداها بأنها حاملة وهي تستشيره في أمر ذلك الجنين، ولما علمت أم البطل ذلك وبخته وقالت له: "ماذا سيقول الناس؟ لقد عاد من باريس وفي ذراعه فتاة... فتاة تشتغل في مخزن... فتاة مسيحية من غير دينه...فتاة... أية فضيحة وأي عار سينصب على بيتنا، بيتنا هذا الذي عاش طويلا في الستر والفضيلة والشرف والدين..." [4] وتحت ضغوطات أمه أنكر البطل ما كان بينه وبين جانين قائلا: "وليس لي أن أقدم لك أية نصيحة أو إشارة، تحياتي الصادقة

[1] شرق وغرب: رجولة وأنوثة - جورج طرابيشي- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1997، ص، 82

[2] الحي اللاتيني –سهيل إدريس- دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م، ص- 72

[3] نفس المصدر- ص، 162

[4] نفس المصدر- ص، 215

لك." [1] ولما وصل إلى جانين هذا النبأ من حبيبها الشرقي، قامت بإجهاض جنينها وأصبحت فتاة ضائعة. وذكر جورج طرابيشي في كتابه بأن عمله هذا مشروعا لانتقام كبير دبره البطل من قبل لينتقم من الغرب. "إن جانين تسقط لأنه كان يجب أن تسقط. وهذا الوجوب خارجي، ولا ينبع من ضرورة داخلية، أي لا ينبع من حرية جانين من حيث أنها شخصية روائية، وإنما من جبرية المخطط المسبق، مخطط الانتقام غير المجاهر به." [2] ومهما يكن من أمر فإن صراع القيم بين الشرق والغرب موجود أصلا في هذه الرواية وذلك في شعور الواعي واللاوعي للبطل والشخصيات الروائية.

بقي كلام لابد من ذكره وهو أن جانين بعد أن رفضت طلب حبيبها الشرقي للزواج منها. كتبت رسالة إلى البطل تقول فيها: "لقد استعدت ماحدثتني به عن المستقبل وعن آمالك وعن حياة الصراع الذي أنت مدعو إلى أن تعيشها في بلادك فوجدت أن دنياك التي تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلي، إنك الآن تبدأ النضال، أما أنا فقد فرغت منه، ومات حس النضال في نفسي... لا يا حبيبي لسنا على صعيد واحد، لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسى، فكيف تريدني أن أستطيع السير إلى جانبك، قدما واحدة، في الطريق الشاق الذي ستسلك؟... إن بوسعي الآن أن أتمثل نفسي إذا رافقتك ستجرجرني خلفك، سأعيق طموحك، سأكون أنا في السفح وتكون أنت في القمة فامض قدما يا حبيبي... ولا تلتفت إلى وراءك... وعد أنت يا حبيبي إلى شرقك البعيد الذي ينتظرك، ويحتاج إلى شبابك ونضالك." [3] ويعلق جورج طرابيشي على هذه العبارة قائلا: "ففي تلك الصفحة الأخيرة لايعود بطلنا يمثل نفسه وحدها ولا يعود يمثل حتى الفتى الشرقي، وإنما يغدو رمزا للشرق الذي يستيقظ، ولاتعود جانين تمثل نفسها وحدها ولاتعود تمثل حتى الفتاة الغربية، وإنما تغدو رمزا للغرب الذي يأفل... لا إنها

[1] نفس المصدر- ص، 217

[2] شرق وغرب: رجولة وأنوثة- جورج طرابيشي- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1997، ص، 103

[3] الحي اللاتيني –سهيل إدريس- دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2006م، ص، 261 -262

تضع كلا من الشرق والغرب في كفتي ميزان، فلا ترجح كفة واحدهما، إلا إذا شالت كفة الآخر، والعلاقة التي تقيمها بينهما علاقة صراع أبدي. فهي تجعل ازدهار الغرب مسؤلا عن انحطاط الشرق، ولا تتصور يقظة للشرق إلا إذا واكبها أفول للغرب." [1]

الخاتمة

الصراع بين الشرق والغرب كما مثلته هذه الرواية قديم قدم تاريخ الشرق والغرب. الاستشراق والاستعمار والإمبريالية كلها أوقدت وأثارت وأزكت جذوة الصراع. ولما بدأ الشرق يفيق ويستيقظ، وجد نفسه يهيئ لمزيد من الصراع مع العالم الغربي الذي أذاقه أنواعا من العذاب وأشكالا من الظلم والعدوان. وصور هذا العذاب والظلم والعدوان بقية راسخة في أذهان أهل الشرق كلهم. فكل مرة يلتقون مع الغرب أو يتعاملون معه تراودهم خواطر وأحاسيس من الحقد والكراهية. وربما يقع في أذهان بعضهم أن يثأروا من الغرب وينتقموا منه جزاء بما مارسوه من ظلم وعدوان واستعمار تجاههم. وقد صورت هذه الرواية كل هذه الأفكار تصويرا رائعا.

قائمة المصادر والمراجع

1. إدريس، سهيل: الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعةالرابعة 2006م.
2. التلاوي، محمد نجيب: الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007م.
3. زقزوق، د.محمد حمدي :الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، سنة الطبعة غير مذكورة.
4. الخطيب، محمد كامل: المغامرة المعقدة، مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976.

[1] شرق وغرب: رجولة وأنوثة- جورج طرابيشي- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1997، ص، 109- 110

5. سليمان، نبيل: وعي الذات والعالم دراسات في الرواية العربية، دار الحوار للنشروالتوزيع، سورية، الطبعة الأولى 1985م.

6. طرابيشي، جورج : شرق وغرب رجولة وأنوثة : دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت، الطبعة الرابعة 1997م.

7. طرابيشي، جورج: المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي،رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى فبراير، 1991م.

8. عليان، د.حسن: العرب والغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشروالتوزيع، عمان 2004م.

9. عبد الغني، د. مصطفى : الإتجاه القومي في الرواية العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978م.

10. مباركي د.جمال: الغرب في الرواية العربية الحديثة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراة العلوم في الأدب العربي الحديث، 2008- 2009.